

## شعرية الصَّرح الممرّد قصر البديع : المثال النموذجي للمكان القالوذجي

السعيد أهرو

الكلية المتعددة التخصصات آسفي، جامعة القاضي عياض مراكش

الصَّرح الممرّد هو القصر المملّس البناء، المصقول الملاط<sup>1</sup>. والتمريد مأخوذ من المرادة التي هي نقاء الخدين من الشعر والغصن من الورق، والأمرّد: الشاب الذي بلغ خروج لحيته، وطّر شاربه ولم تبدُ لحيته؛ قال ابن منظور: «الممرّد المملّس، وتمريد البناء: تمليسه، وتمريد الغصن: تجريده من الورق (...)» وفي حديث معاوية: تمرّدت عشرين سنة، وجمعت عشرين (...) أي مكثت أمرّد عشرين سنة ثم صرّت مجتمعة اللحية عشرين سنة<sup>2</sup>. والقصة الأصلية لمفهوم الصرح الممرّد التي ألهمتني أن أتخذة يعسوب<sup>3</sup> التأويل في هذه الورقات، هي قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ، التي أخبر بها القرآن الكريم في قول الحق سبحانه وتعالى: (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ) [سورة النمل/ الآية: 44]؛ فإن سليمان كان قد مرّد لها صحن القصر من زجاج، ثم أجرى من تحته جدولا فيه سمك، ولما كان سطح هذا الصحن قارورة رقيقة لا تكاد تتميز عما يخلج تحتها من تيار الماء، ذهلت الملكة عنها، ولم تكذب أنها تخوض ضحضا<sup>4</sup>، بعلامة تشميرها عن ثوبها<sup>5</sup>!

لقد كاد سليمان بلقيسا بهذا التمريد كيذا مخضودا منزوع الشوكة، فضلا عن إرادته به إفحامها بملك أعز من ملكها، رغب له أن يكون ترشيحا لما هي عليه من الرقة المركوزة في طبائع النساء، حتى وإن كنّ ملكات متغلبات؛ فذلك أمشاها على بلاط قد صيغ من عنصر مضارع لعنصرها؛ فإنه يقال للنساء القوارير لتلك العلة من الرقة والتكسر، وما حديث: «رفقا بالقوارير»<sup>6</sup> بسير! فمن حسن المواتاة في ذلك أن بلقيس لما كانت قارورة، تلطفت لها سليمان لأن تدلف إليه على قارورة! وقد ذكرتني هذه المواتاة الملوكية بقيد ملك الغور علاء الدين الحسين بن الحسين الذي كان قد أعدّه للسلطان سنجر، وكانا قد اقتتلا، فظفر سنجر به، فلما أحضره قال له: ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني؟ فأخرج علاء الدين قيّدا من فضة، وقال: كنت أقيّدك بهذا! فعفا عنه سنجر، وأطلقه إلى بلاده<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> - الملاط: الطين الذي يطلى به الحائط أو يجعل بين ساقى البناء. لسان العرب/ مادة: (مَلَطَ). والصُّروح لا تُملط بالطين، وإنما بما هو أنفس منه من مواد البناء.

<sup>2</sup> - لسان العرب/ مادة: (مَرَدَ).

<sup>3</sup> - اليعسوب: أمير النحل وذكرها، ثم كثر ذلك حتى سموا كلَّ يعسوب رئيسا. لسان العرب/ مادة: (عَسَبَ). والمقصود أن التأويل ينبغ مفهوم الصَّرح الممرّد؛ وقد اقتبسْتُ هذا المعنى من حديث الدجال: «فَتَنْبَغُهُ كَنُوزُهَا كَيْعَاسِيْبِ النُّحْلِ!».

<sup>4</sup> - الضحضا: الماء إلى الكعبيين إلى أنصاف السُّوق، وهو ما لا عَرَقَ فيه. لسان العرب/ مادة: (ضَحَحَ).

<sup>5</sup> - التشمير: رفع الثوب عن الساق. لسان العرب/ مادة: (شَمَرَ). ولا يقال لكَمْشٍ وَقُلْصِ الثوب عن الساعد تشمير، وإنما يقال له: حَسَرٌ.

<sup>6</sup> - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ بَلَفْظُ: «رُويْدَكَ يَا أَنْجَشَةَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ».

<sup>7</sup> - البداية والنهاية، لابن كثير، انظره تحت أحداث سنة: 547 هجرية.

ولسليمانَ في الزجاجِ معاملة قديمة، فمما قُصَّ<sup>8</sup> من ذلك أن الله علّمه صنعة القوارير ليَتَّخِذَ منها أنيةً شربه، حتى لا يفقد وجوهَ مردة الجن والشياطين إذا شرب بمحضرهم، وذلك لأنهم، لتمريضهم في طاعته، كانوا كلما رأوا ماعونَ مائه أو لَبْنَه يُعْطِي عند شربه، كالعصابة، على عينه، كَلَحُوا له، وربما تَمَثَّلُوا عليه بالهياتِ التَهْكُمية! فَكَبَّتْهُمْ القواريرُ عما كانوا يتعاطونه من هذا السُّخفِ في تلك الفترة<sup>9</sup> من الشرب، وحسبَتْ مادةَ جرائعهم عليه بتهجينه على غَفْلَةٍ منه، لأنها كانت تَنِمُّ له عنهم، فَتَحَقَّقَ بها كَيْدٌ موبِخٌ لهم، فصاروا كلما أَهْطَعُوا<sup>10</sup> له بالنظر، رأوا من وراء القارورة عينين كسراجي سَلِيطٍ<sup>11</sup> تراقبان. فَبِذَا نَقَفَ لسليمان عليه السلام على تمرّدين كادَ اللهُ بهما له: تمرّد الإيوان وتمرّد الأنية! وقد أزيد عليهما تمرّدا ثالثاً، غير أنه تمرّد غير قواريري، وموضعه هذه المرة مَنَسَأُ سليمان، وهي عصا مملّسة مجرودة، ككَلِّ عَصَا، وبها سيمَ أولئك المَرْدَةُ كيدا آخر، حيث لبثوا في عذاب السُّخرة لسليمان زمناً، وهو ميت في هيئة التوكُّؤ عليها، وهم يظنُّونه قائماً بالمرافقة على قَفَّانٍ<sup>12</sup> كلّ واحد منهم.

الصرح الممرّد إذاً هو القصر القواريري، لا أنه ممرّد في ذات القوارير، وإنما هو في معناها، لكونه يُصنَعُ على أَمْلَسِ طبقة من البناء وأَشْنَيْهَا<sup>13</sup>؛ وقد اتَّخَذَتْهُ في هذا البحث الصغير صورةً مكانيةً أَطْمَعُ من خلالها أن أثبت شعريّة وألفة بعض القصور الملوكية القديمة كما وصَفَتْهَا الكتبُ الأدبية والتاريخية، منتخِباً منها لفائدة المثل: قصر البديع المراكشي، الذي بناه السلطانُ السعديُّ الأفخم: أحمد المنصور الذهبي؛ فَلَنَرَّ ما يمكن مُعَافَسَتُهُ من التأويل من أجل هذا الإثبات!

وصف أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ظَرَفَ بناء هذا القصر، فقال: «لما أراد المنصورُ أن يشرع فيه، أحضر أهل العلم ومن يَتَّصِفُ بالصلاح، فتحينوا أوانَ الابتداء ووقتَ الشروع فيه، فكان ابتداءُ الشروع في تأسيسه في شوال خامس الأشهر من خلافته سنة ستٍّ وثمانين وتسعمائة، واتَّصَلَ العمل فيه إلى سنة اثنتين وألف. ولم يتخلل ذلك فترة، وحشد له الصُّنَاعُ حتى من بلاد الإفرنجية، فكان يجتمع كلّ يوم فيه من أرباب الصنائع ومَهَرَةٍ الحكماء خَلَقَ عَظِيمٌ، حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجارُ ببضائعهم ونفائس أَعْلَاقِهِمْ»<sup>14</sup>.

وقال الناصري يُصَوِّرُ موادَ التمرّد في هذا القصر: «وفيه من الرخام المَجَرَّعِ والمرمر الأبيض والأسود ما يُحَيِّرُ الفكرَ ويدهش النظرَ، وكلُّ رخامة طُلِّيَ رأسُها بالذهب الذائب، وموّة بالنُّظَارِ الصافي، وفُرِشت أرضُه بالرخام العجيب النَحْتِ الصافي البشرة،

<sup>8</sup> - مجمع الأمثال، للميداني، انظره تحت مثل: «أنتم من زجاج على ما فيه».

<sup>9</sup> - سَمَّيْتُ هذا الوقتَ فترةً لانقطاع النَّظَرِ فيه إلى الجَلَّاسِ، مأخوذاً من فترة انقطاع الوحي. (انظر الهامش: 53).

<sup>10</sup> - هَطَعَ: المهْطَعُ الذي ينظرُ في ذَلٍّ وخشوع. لسان العرب/ مادة: (هَطَعَ).

<sup>11</sup> - سراج السَلِيط: سراج الزيت. والمعنى مأخوذ من حديث ابن عباس: «رَأَيْتُ عَلِيًّا وَكَأَنَّ عَيْنَيْهِ سَرَجًا سَلِيطٌ!». لسان العرب/ مادة: (سَلَطَ).

<sup>12</sup> - مأخوذ من قول عمر رضي الله عنه: «إِنِّي لَأَسْتَعِينُ بِقُوَّةِ الرَّجُلِ الْفَاجِرِ، ثُمَّ أَكُونُ عَلَى قَفَائِهِ»؛ أي أكون على تَتَبُعِ أمره حتى أَسْتَقْصِيَ علمه وأَعْرِفَهُ. لسان العرب/ مادة: (قَبَنَ).

<sup>13</sup> - الشَّنْب: صفاء الأسنان ونقاؤها وبصيصٌ يكون عليها. لسان العرب/ مادة: (شَنَّبَ).

<sup>14</sup> - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، نشر بعناية جعفر الناصري (و) محمد الناصري، الجزء الخامس، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997م، ص: 135.

وَجُعِلَ فِي أَضْعَافِ ذَلِكَ الزَّلِيلُجُ المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزَّهر، أو بُرْدُ مُوشَى من عَمَلِ صَنَعَاءَ وَتُسْتَرُ»<sup>15</sup>.

لكن هل يفرح مؤوّل شعريّة الصّرح الممرّد لمجرّد الظّفِر بمثل هذه القرائن القواريرية؟ أم أنّ ذلك لا يكفيه من أجل أن يرى تحت تاج هذه الفخامة قُلُوسُؤَة الألفه<sup>16</sup>! ما هو يا ترى المعنى البِكْرُ الذي يجعل ذلك الرخام البارد دافئاً مثل كيس طَحْنٍ حديثٍ عَهْدٍ بَتَضْرِيْسِ الرّحى؟

في صرح سليمان مثلاً معنى، من قبيل هذا المعنى المبحوث عنه، جَعَلَ قواريره تتخذ هيئة الانسراح، وهو: داعية الكيد الودود إلى تمرّد ذلك الصرح! وكذا في قَدَحٍ شَرَبه معنى مثله جعل هذه القارورة تتخذ هيئة الانقباض، وهو: داعية الكيد الموبّخ إلى تمرّدها! فهذان معنيان نقلاً التعجب من تمرّد الإيوان وتمرّد الأنية نقلة عجيبة، وتَنَاتُجُ العَجَبِ أَعْجَبُ له! وذلك أَشْبَهُ، مع وجود الفارق، بَتَنَاتُجُ الجُنُونِ في حال أبي القاسم الحسين بن علي، المعروف بالوزير المغربي كما في وَصَفِ ابن القارح إياه بقوله: «أردتُ أن أقول له اسْتَرَحْتُ من حيث تَعِبَ الكرام، فَخَفْتُ جنونَ جنونه، لأنه كان جنونه مجنوناً!»<sup>17</sup>.

يفتقر قصر البديع مبدئياً للتعجب المعنوي الذي هو بمحلّ من ذلك التعجب الحسيّ كمحلّ صبغة نُضَجِ الثَّمَرَة من الثمرة؛ فكما أن الثمرة لا تُرى حقا إلا في لون هذا الصبغ، كالهَبَاءِ المنثور لا يُرى إلا في طرائق الضوء! فكذلك الشأْنُ ثَمَّةٌ؛ فالقصر الممرّد ما لم يُدْهَشْ بمعناه الغريب إلى جانب الدّهشة الحُصولية لمبناه، يُنْخَزَلُ إلى أضعف هالة من التأثير؛ فَلَفَقَدَ قصر البديع صبغة التعجب عند رجل من البهاليل حَضَرَ حفل افتتاحه، قال فيه، والمنصورُ يسمّع، «إذا هُدِمَ كان كُدِيَّةً كبيرة من التراب!»<sup>18</sup>؛ ولله دُرٌّ هذا البُهلول المَحْدَثُ، فقد رَجَمَ بغيبٍ، فوَجَدَ بعد سبعة عشر ومائة عام على نَحْوٍ قريب مما تَطَنَّنَ به، ولو أنه تَفَرَّسَ لباني ذلك القصر عن ذِمَّةٍ فيه تَذَمَّمَهَا أو هِمَّةً تَهَمَّمَهَا، لَعَلَّبَ على ظنه أن يكون عند هدمه كُدِيَّة، لا من تُراب، ولكن من معنى ما وَقَرَ في نفسه من الفِرَاسة التي أُنْتَجَتْ! وذلك مثلاً كَتَاوُلُ مصطفى صادق الرافعي حَذَّ رَجَمِ الزاني المُحْصَنِ على معنى كونه: هَدَمَ بيتاً، فهو يُرْجَمُ بحجارتة<sup>19</sup>!

من شأن التعجب المعنوي، أن يجعل الصرح الممرّد بيتاً بالمعنى الباشلاري للكلمة، أي مكاناً شعرياً مألوفاً! وذلك كهذا التعجب الذي تَجَدُّه لإيوان كسرى أنوشروان<sup>20</sup> بمجرّد عِلْمِكَ أنه عند بنائه إياه تجافى لامرأة عجوز عن مسكنها الواقع في حاقٍّ مساحته، وكانت غيرَ راضية بالبَدَلِ عنه، رغم مساومتها عليه بمال يزيد على قيمته، فَجَعَلَ الملكُ على بيتها قبة نفيسة، فَدَخَلَ في جملة القصر؛ ومقتضى التعجب الشعري في ذلك أنّ القصر هو الذي دخل في جملة البيت! أي أنه تحوّل، لِحَيِّثِيَّةِ ذلك الرِّفْقِ، إلى بيتٍ ودودٍ؛ ثم كانت هذه العجوزُ،

<sup>15</sup> - نفسه.

<sup>16</sup> - القُلُوسُؤَة: لباس الرأس، وربما كان تحت العمامة أو النَّاج، كما سمى المرتضى الزَّبيدي معجمه المزيد على معجمه الكبير: قُلُوسُؤَة النَّاج.

<sup>17</sup> - رسالة ابن قارح، ضمن رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، تحقيق: عائشة عبد الرحمان، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص: 59.

<sup>18</sup> - الاستقصاء، مصدر مذكور، ص: 143.

<sup>19</sup> - وحي القلم، دار ابن حزم، بيروت، 1426هـ/ 2005م، ص: 894.

<sup>20</sup> - آثار البلاد وأخبار العباد، للقزويني، دار صادر، بيروت.

بَعْدُ، تَوْقُدُ تَتَوَرَّها، فَتَدَخِّنُ به على الزخارف العالية الطراز لناحية الإيوان القريبة من بيتها، فاشْتُكِّي إلى الملك في ذلك، فكان يأمر بتلميع تلك الزخارف عند كل تدخين عليها؛ ومثُلُ هذا التلميع عند غاستون باشلار هو بمثابة بناءٍ للبيت<sup>21</sup>! وفي رواية أخرى أن كسرى لم يَضُم دارها إلى إيوانه، بل أَرَاوَر به عنها، فجاء الصَّرْحُ ذا عَوَجٍ وَتَقَعُرٍ في موضع ذلك الازورار، على الهيئة المعروفة لقطعة البازلِ puzzle<sup>22</sup>! وقيل إن سفير الروم تَفَرَّجَ على الإيوان، فأنكر ذلك العيب في البناء، فقال: ألا ينبغي أن يكون هذا الإيوان مربعا؟ فلما أُخْبِرَ بالقصة، قال: هذا الاعوجاجُ أحسنُّ من الاستواء!<sup>23</sup> وبَيَّنَّ، كما ترى، أن هذا الرومي قد تعجَّب من كل محاسن الصرح الممرد تعجُّبا حسيًّا لازما، فلما جاء إلى تلك العورة منه، ووَجَدَ عندها معنًى غريبا يَخْصِفُ عليها الوَرَقَ! تعجَّبَ هنالك تعجُّبا معنويا متعديا، لقد عَثَرَ هذا الداخل إلى الصرح الممرد على موضع الصَّبْغَةِ من الثمرة، بل لقد اطلَّع على بيضة العُثْرِ!

إن الغالب على الصرح الممرد خلوه العضوي من الألفة، حتى قال شارل بودلير: «في القصر لا مكانَ للألفة!»<sup>24</sup>؛ فعلى هذا، ينبغي يكون كل صرح خالف طَبْعَ الغطرسية إلى تَطْبُعِ الدَّمَائَةِ، قد مُرِّدَ، لا من قوارير البِنْيَاتِ وحسب، بل من قوارير النِّيَّاتِ أيضا! أي أن يكون بَيَّتُهُ بانيه المَرْهَفُ الحسَّ على نِيَّةٍ شعرية، أي على نية رقيقة مدهشة، بِغَضِّ النظر عن مضمونها؛ كَنِيَّةِ الكوخ، مثلا في أمنية الشاعر سانت بول رو، الذي بنى، كما يقول باشلار، قصرا شعريا له قَلْبُ كوخ! وقد اعترف سانت بذلك فقال: «السبب الأصلي الذي جعلني أبني القصر هو أن أرى الكوخ بشكل حقيقي!»<sup>25</sup>. والمسألة التأويلية الآن هي: هل لأحمد المنصور الذهبي سرٌّ، والسرُّ هو النية الخفية، في صرحه الممرد المسمَّى: قصر البديع؟

أراد المنصور الذهبي أن يُنافح بقصر البديع عن أسلافه الأشراف، وأن يكون، كما قال الوزير الأديب عبد العزيز الفشتالي، لأهل البيت من خلاله مَأْتِرَةً وَشُفُوفَ على دولة البرابر من المرابطين والموحدين وَمَنْ بَعْدَهُمْ<sup>26</sup>؛ وقد كاد هذا المراد السَّلَالِي أن يحتبس أيَّ إيرادٍ آخر من المراد سواه، لولا إغرابُ المنصور في بعض خُطَطِ بناء قصره، فدلَّ بهذا الإغراب على مِفْحَصٍ<sup>27</sup> نِيَّتِهِ حِيَةَ التَّوِيلِ<sup>28</sup>! فَعَثَرَ له فيه على مُرَادٍ لا يُقْضَى منه العَجَبُ، أو قل: بسبب ذلك الإغراب مَرَّدَ المنصور مراده! لكن، ما هذه الخطة المذكورة الخارقة لعادة البناء أولا؟ إنها:

جَلْبُهُ الرُّخَامَ من بلاد الروم مُقَايِضًا إياه بالسُّكَّر وزنا بوزن<sup>29</sup>!  
قال الناصري: «كان يشتري الرخام من النصارى بالسُّكَّر!»<sup>30</sup>.

<sup>21</sup> - جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1416 / 1996، ص: 84.  
<sup>22</sup> - قَطَعَ لِلْعَبِّ يوصلُ بعضها ببعض بواسطة تجويفاتها وزواندها، لتشكيل صورة مضمَّنة فيها.  
<sup>23</sup> - سَرَّخُ العيون في شرح رسالة بن زيدون، لجمال الدين بن نباتة المصري، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص: 58.  
<sup>24</sup> - جماليات المكان، مرجع مذكور، ص: 54.  
<sup>25</sup> - جماليات المكان، مرجع مذكور.  
<sup>26</sup> - الاستقصا، مصدر مذكور، ص: 134.  
<sup>27</sup> - المِفْحَصُ: الموضع الذي تَجَنَّم فيه القَطَاةُ وَتَبَيَضُ. لسان العرب/ مادة: (فَحَصَ).  
<sup>28</sup> - هذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر الأخطل: ضفادع في ظلماء الليل تَجَاوَبَتْ فَدَلَّ عليها صوتها حِيَةَ البحر  
<sup>29</sup> - الاستقصا، مصدر مذكور، ص: 135.  
<sup>30</sup> - نفسه، ص: 190.

إن مقايضة الرخام بالسكر تجعل، في التأويل، تمرید الصرح بالرخام تمریدا له بالسكر! فَتَحَوَّلَهُ فَالْوَدَجَةُ<sup>31</sup> عظيمة! وبذلك يكون دخول هذا الصرح كدخول رَهْطِ الصَّبِيَّةِ وأوليائهم إلى جَنَّةٍ ويلي وونكا الحَلَوَائِيَّةِ في رواية روالد دال: «قصة تشارلي ومصنع الشوكولاته»<sup>32</sup>؛ إذ ينبغي أن يُدْلَفَ إلى ذلك الصرح الفالودجيّ بشعور شبيه بشعور نَمْلَةٍ تُدْلَفُ إلى زَنْبِيلٍ سَكَّرٍ! وهو شعور الامتلاء من الحلاوة حتى من دون مباشرة السكر بالتذوّق، وَحَدَّثَ في هذا الامتلاء عن النحلة في الجُبْح، وعن السُّوس في التَّمَر، ولا حَرَجَ! كأننا بالمنصور الذهبي- الذي ينبغي أن يسمى في هذا التأويل: المنصور السُّكَّرِيّ! وَنِعْمَ التسمية هي لسلطانِ كَثَرِ السُّكَّرِ في وقته حتى لم تُعَدَّ له قيمة، وذلك لكثرة ما صُنِعَ من معاصر السكر بمراكش وحاحه وشوشاوة<sup>33</sup> - قُلْتُ: كأننا به أَعَدَّ هذه الفالودجة الضخمة من أجل إتحاف<sup>34</sup> زوّار قصره، ومن خلالهم، إتحاف أسلافه؛ وفي ذلك برّ نفيس بهؤلاء الأسلاف؛ لأنه، لما أظهر في بناء القصر نيّة تخليدهم، حَلَّى هذا التخليد بالسُّكَّر! والمُتَجَفُّ بالسكر بارٌّ في إتحافه ولا بد؛ لأنه يُنْفِقُ مما يجب، مصداقا لقول الحق تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران/ 92]؛ ولأجل هذا البرّ، كان السكر أكثر ما ينفقه ابنُ عمر رضي الله عنه، كما هو مشهور عنه؛ وذلك لأنه يحبُّ السُّكَّرَ كما قال<sup>35</sup>. والمنصور كذلك يحب السُّكَّرَ، وقد بلغ من حبّه إياه أن جعل له حُكْمَ سِكَّةِ المالِ لِحَيِّثِيَّةِ تلك المقايضة الغريبة المِثَال، وأدار له الأَرْحَاءَ التي كانت تُدار من قبل لطحن الحبوب وعصر الثمار، بل لقد جعله قارورة تمرید، وفالودجة إتحاف؛ ولعلّه أن يَكْبُرَ الظَّنُّ في أن يكون المنصور قد خَرَجَ في عَطْفِ السكر إلى القَدْرِ الفاضل عن الحب، الذي هو الشَّغْفُ، وربما كان شغفه به من قبيل هذا الشغف الذي عَبَّرَتْ عنه إميلي نوتومب في سيرتها الذاتية: «بيوغرافيا الجوع» بقولها: «عندما كنت طفلة متضوّرة جوعا إلى السكر، لم أكف يوما عن السعي وراء زادي منه: فالسعي وراء السكاكر كان بالنسبة لي أشبه بالسعي وراء الكأس المقدسة!»<sup>36</sup>.

ولم يكن في نية المنصور، بحسب هذا التأويل، مجردُ الإتحاف بفالودجته، بل الظنُّ فيها أنه طَمِعَ أن يكيد بها أيضا الملوك من بعده، وخاصة أولئك الذين هم من دولة غير دولته السعدية، من حيث أراد أن يُظهر لهم، على طريقة النبيّ سليمان، مُلْكا أعزَّ من ملكهم؛ فَجَعَلَ لهم نَوْعَ حَنْفٍ في هذا الإتحاف! أو قُلْ: قَشَبَ لهم فالودجته<sup>37</sup>، أي دَسَّ فيها سُمًّا، وهو سُمٌّ معنوي زُعَاف، كمثل السِّمِّ الذي وجده الخليفة عبد الملك بن مروان في حديث بعض أصحابه في حضرته بسيرة عمر رضي الله عنه، فما بَرَحَ أن قال لهم: «إيها عن ذِكْرِ عمر، فإنّه إزراءٌ على الوُلاة، مَفْسَدَةٌ للرّعية!» ومما يوكِّدُ هذا المذهب من التأويل وجودُ سابقة للمنصور في قَشَبِ السُّكَّر، وإلحاقِ الحَنْفِ به؛ فقد ذَكَرَ الناصريُّ في الاستقصا أنه سأل الفقيه الشريف أبا محمد عبد الله بن علي السجلماسي عن نَسَبِهِ السعديّ، وهما على خوان طعام في بعض قصوره بحضرة مراكش؛ وقد كان يُروّجُ في الأوساط الخاصة آنذاك شَكُّ في ارتقاء

<sup>31</sup> - الفالودج: حلواء ملوكية تُصنع من العسل أو السكر.

<sup>32</sup> - صدرت هذه الرواية سنة: 1964.

<sup>33</sup> - الاستقصا، مصدر مذكور، ص: 135.

<sup>34</sup> - الإتحاف: الإطراف من الفاكهة والرياحين. لسان العرب/ مادة: (تَحَف).

<sup>35</sup> - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، الجزء الثاني، تفسير سورة آل عمران، دار صادر، ص: 91.

<sup>36</sup> - ترجمة: بسام حجار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 2006، ص: 27.

<sup>37</sup> - القَشَبُ: خَلَطُ السِّمِّ بالطعام. لسان العرب/ مادة: (قَشَب).



ذلك النسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال له: أين اجتمعنا يا فقيه؟ يعني في النسب، فقال أبو محمد: على هذا الخوان! ويروى: في هذا المشور! فأسرّها المنصور في نفسه ولم يُبدها له، إلى أن احتال عليه بما كان السبب في إتلاف مُهجته، فكان بعد ذلك «يدعو الشيخ أبا محمد فيجلسه على الرخام في زمن كَلْبِ البرد وهيجانه من غير حائل، وقد اتخذ المنصور، فيما زعموا، لَبْدَةً صوف داخل سراويله لا يُحسُّ معها بالبرد، فإذا رآه أبو محمد تجلّد واستحى أن يقوم عن السلطان ويترّكه، ويستمران على المذاكرة في مسائل العلم؛ فعَل ذلك به أياما حتى سَكَنَتْهُ عِلَّةُ البرد، فلم يزل أبو محمد يشتكي من ذلك إلى أن قَضَتْ عليه!». وليست هذه علة برد، ولكنها علة سكر، وهي على شاكلة علة الإمام مسلم التي قَضَتْ عليه رحمه الله؛ فقد ذَكَرَ الخطيب البغدادي سبب موته فقال: «عُقِدَ له مجلس للمذاكرة، فسئل يوما عن حديث، فلم يعرفه، فأنصرف إلى منزله، فأوقد السراج وقال لأهله: لا يدخل أحد الليلة عليّ، وقد أُهديت له [أو قُلْ بلغة هذا التأويل: أُتُحِفَ] سَلَّةٌ من تمر، فبات يأكل ثمرة ويكشف عن حديث، ثم يأكل أخرى ويكشف عن آخر، فلم يزل ذلك ذأبُهُ حتى أصبح وقد أكل تلك السَلَّة وهو لا يشعر!»<sup>38</sup>.

ربما قُرِنَ من كانت له روحٌ سامّةٌ، كروح دُوريان غراي مثلا، التي قال هو نفسه عنها في بعض نجّوا: «لقد رأيتُ رُوحِي، إنها فاسدة، إنها قَذَرَةٌ، إنها سُمٌّ!»<sup>39</sup>، ربما قُرِنَ هذا السُمِّيُّ بالقارورة، فيقال فيه مثلا: «فَلانٌ سُمٌّ القارورة!»، كما قال ابنُ الخطيب في الوزير المنكوب محمد بن أبي الفتح: «سُمٌّ من سُمِّ القوارير!»<sup>40</sup>؛ فهذا الوصف أولى به سكرُ المنصور المقشوب، فهو سُمٌّ القارورة حقًا! لأن الفقيه أبا محمد تَشَرَّبَهُ من قارورة الرخام التي مُرِدَ بها مقعدٌ جلوسه بين يدي المنصور؛ حيث كان يجد من تحته مَلَسَةً حَيَّةً سَالِحَةً<sup>41</sup>، والمنصور المجالس له لا يجد ذلك، لأنّه لَمَّا مَلَسَ للفقيه حَلَسَ لنفسه!

إن كَيْدَ المنصور في قَسْبِ السكر للفقيه أبي محمد هو بخلاف كيده في صرحه الفالودجيّ، وفرّق ما بينهما أنه أَغَصَّ بالسكر الفقيه غُصَّةً إزهاق، ورام أن يَغُصَّ به الملوك المنافسين من بعده غُصَّةً إزهاق، من حيث أراد أن يُعَيَّرَ عليهم بآثار ملوكية لا قِبَلَ لهم بها؛ وفي مثل هذا المعنى يُروى أن أبا بكر قال عند احتضاره: «يا عائشة، أنظري اللَّفْحَةَ التي كنا نَشْرَبُ من لبنها، والجفنة التي كنا نَصْطَبِغُ فيها، والقطيفة التي كنا نلبسها، فإننا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمرَ المسلمين، فإذا مِتُّ فارُدِّيه إلى عمر؛ فلما مات أبو بكر، أُرسلت به إلى عمر، فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر، لقد أَتَعَبْتُ من جاء بعدك!»<sup>42</sup>.

إن في تاريخ ملوك العرب كيدا شبيها بهذا الكيد المنصوريّ في صرحه الفالودجيّ؛ حيث يُروى أن الأميرَ أبا عبد الله محمد بن يحيى الحفصي لما أَسَفَتْهُ بعضُ القبائل في دولته، لكثرة خروجهم عليه، فَتَلَّ لهم في الذروة والغارب حتى استدعى رؤساءهم إلى حضرة مُلكه، فَتَلَّطَفَ بهم إلى مِيْتَةٍ لا يُشْكُّ أنها أَمْرٌ سماويّ ليس فيه حيلة، فأضافهم تحت قبة حسناء بناها لهم على قواعدِ المِلْح، ثم أراق، على غفلة منهم، الماء الساخن على تلك القواعد، وقد وَقَّتْ

<sup>38</sup> - البداية والنهاية، مصدر مذكور، أحداث سنة: 261هـ.

<sup>39</sup> - كلام مقتبس من فيلم: "The Picture of Dorian Gray"، الذي عرض سنة: 2009.

<sup>40</sup> - نفاضة الجراب في علالة الاعترا، تحقيق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، بدون تاريخ، ص: 108.

<sup>41</sup> - السالخ: الأسود من الحيات وأقتل ما يكون منها. لسان العرب/ مادة: (قشب).

<sup>42</sup> - تاريخ الخلفاء، للسيوطي،

لِخُرُورِ الصَّرْحِ مُدَّةً مُقَدَّرَةً، بحيث يكون فيها أولئك المتربّصون بهم عاكفين تحت القبة على شرايهم؛ ثم خَرَّ السَّقْفُ عليهم، فَقَضُوا تحته<sup>43</sup>.

والتأويل الذي نحن بسبيله يُفسّر هذا النَّحْبَ على أنه نَحْبٌ غُصَّةٍ لا نَحْبٌ هَدْمٍ؛ لأن الأمير الحفصي لما أقام لهم ذلك الصرح الممرّد على الملح، فإنما دعاهم به إلى جَفَنَةِ طعام عظيمة كجَفَنَةِ عبد الله بن جدعان<sup>44</sup>، غير أنها جَفَنَةٌ مقشوبة؛ لإرادته، فرارا من التهمة، أن يَحْتَلِمَهم بِإِتْحَافِهِمْ إلى حَنَفِهِمْ!

بقي قصر البديع من بعد المنصور مدّة سبع عشرة ومائة سنة إلى وقت السلطان المولى إسماعيل، الذي أَمَرَ بتخريبه؛ قال اليفرنّي: «فإنه أمر بهدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف لموجبٍ يطولُ شرحه، فهُدِمَت معالِمُه، ومُحِيتْ مراسِمُه، وفُرّقَ ما كان به من جموع الإنس، وعادَ حَصِيداً كأن لم يَغْنِ بالأمس!»<sup>45</sup>. ونحن اليوم لا نَقْدُ قصرَ البديع، فإن زائرَه يدخل منه إلى هيكَلٍ ضخم ذي فناء رَحْبٍ وسورٍ مُخَدّقٍ، ولكننا نَقْدُ قِوَارِيرَ تمرّيده، مما يدل على أن الهدمَ المذكور لم يُقَوِّضْ هذا الصرحَ كلياً كما تُقَوِّضُ الخيمةُ، ولم يَنْسِفْ جذرياً كما يُنْسِفُ الزَّرْعُ، وإنما اقتصَرَ على نَقْفِ<sup>46</sup> سَكْرِهِ، مستخرِجاً بذلك الفالونجة من جَامِهَا<sup>47</sup>! وعلى هذا، فقصر البديع الذي نراه اليوم، إنما هو مجردُ قَالِبٍ حَلَوِيٍّ! وربما أحسَّ من يدخل إليه الآن، وقد عَرَفَ هذه الحِثْيَةَ السَّكْرِيَّةَ، بإحساسٍ دُويَّةٍ مُسْتَدَقَّةٍ تجوسُ خلالَ نِوَاةٍ تَمَرَّةٍ! ولئن نُكِبَ هذا القصرَ بكشطِ قِوَارِيرِهِ، فلم يُنْكَبِ النكبةَ القاضية بكشطِ شعريته، بل ربما جَدَّدَ له كشطُه شعريته، فاستأنف به تعجيبه المعنوي، وذلك مثلاً كالثور المسلوخ في لوحة رمبرانت Rembrandt المشهورة؛ وبالمناسبة، فإن للكشطِ في اللغة معنى السَّلَخِ؛ فهذا الثورُ مسلوخاً معلقاً مبعوجَ البطن أشعرُ منه حيّاً مُتَنَفِّساً في مَسْكِهِ<sup>48</sup>! وما أشبهه في ذلك بالأسكندر المقدوني في جنازته<sup>49</sup>:

وقال خطيب من الخطباء، حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت :

« الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس. »

والمسألة الآن هي: لِمَ اقتصر هدمُ قصر البديع على كشط طبقة السكرية؟ قد يقال إن المولى إسماعيل لما غَصَّ بالفالونجة المنصور غصّة الرّهقِ المذكورة آنفاً، لم يجد لإزاحتها من عمل إلا التخلّص من هذه الفالونجة نفسها؛ وهذا تفسيرٌ من لا يعرف الأنفة المخزومية لهذا السلطان، فهو أَشْمَسُ من أن تُسَاعَ منه الغُصَّةُ، إن وُجِدَتْ، بمجرد ذلك الكشط؛ فلو أنه وجدها حقاً، لجعلَ عالي الصرح أسفله، ولوَقَفَ منه على كُدِيَّة تراب، كما تَقَرَّسَ الرجل البهلُول. وأما لِمَ اقتصر السلطان المذكور على مجرد تقشير طلاوة الصرح وحلاوته، فينبغي أن يُتَحَرَّى للجواب عنه في ضوء بعض القرائن المهمة، ومن جُمَلَتِها: إعجابُ المولى

<sup>43</sup> - ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي، لليونيني البعلبكي، تحقيق: عباس هاني الجراح، الجزء الثامن عشر، ص: 297.

<sup>44</sup> - كانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره، ووقع فيها صبيٌّ فغرق؛ وذكر ابن قتيبة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كنثُ استظلَّ بجفنة عبد الله بن جدعان صكّة غمي»، أي: وقت الظهيرة.

<sup>45</sup> - الاستقصا، مصدر مذكور، ص: 143.

<sup>46</sup> - النَّقْفُ: الاستخراج، ونقفت الرمانة إذا قشّرها ليستخرج حبّها. لسان العرب/ مادة: (نقف).

<sup>47</sup> - الجام: إناء للشرب والطعام.

<sup>48</sup> - المسك: الجلد، وخَصَّ به بعضهم جلد السخلة. لسان العرب/ مادة: (مسك).

<sup>49</sup> - البيان والتبيين، الجزء الأول، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: 81.

إسماعيل بالمنصور الذهبي، ومتابعته إياه على بعض الخطط الملوكية الضخمة، كخطة تأليف جيش عبيد البخاري<sup>50</sup>، وكونه السلطان الذي أعاد للدولة المغربية روثق الملك المفقود منذ انقضاء عهد المنصور، كأن هذين السلطانين لُحمة وسدى<sup>51</sup> نهضة الملك المغربي في القرنين الهجريين الحادي والثاني عشر؛ وربما ساعدت هذه القرائن على الاقتناع بأن الهدم المذكور لم يكن صدم كيد بكيد، ولا لُفَّ حبل بحبل، ولكنه كان تسلاً شرفياً لوديعة مختزنة أدخرت لصاحبها الموعود بها، المستحق لها، القادر عليها؛ حتى كاد أن يكون السلطان المولى إسماعيل في انتزاع تلك القوارير كالمملك آرثير Roi Arthur في انتزاع السيف إكسكاليبير Excalibur الناشب في الصخر، الذي نكل عنه سواه من الملوك! والدليل على هذا المعنى الطالوتي<sup>52</sup>، أي معنى استحقاق الملك لثراث ما أو للواء ما، هو تناوش الملوك أبناء المولى إسماعيل من بعده صروحه الممردة بمكناس، يتناقلون قواريرها تتاقل الذخائر الملكية؛ وفي ذلك يقول أبو القاسم الزباني صاحب البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف: «ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيهِ وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون من أنقاضها: من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن، وغير ذلك، إلى وقتنا هذا!»<sup>53</sup>؛ فظاهر عملهم الهدم، وحقيقته التأويلية: استصحاب التراث الإسماعيلي، الذي هو عبارة عن استصحاب الحال الإسماعيلي! وقد بلغ البعض في هذا الاستصحاب أن حملوا توابيت ملوكهم أو صلحائهم في حروبهم، تشبهاً ببني إسرائيل في حمل تابوتهم؛ ومنهم عمرو بن سليمان الشيطمي المغيبي الذي أخرج شلو الشيخ محمد بن سليمان الجزولي من قبره، وجعله في تابوت، وصار يُقدّمه بين يديه في حروبه<sup>54</sup>.

وفي الختام، بقي أن نشير إلى أن فالونجة المنصور قد صارت كالنهب المتقسم، فلم يبق بلد من بلاد المغرب، كما قال اليفرنّي، إلا دخله شيء منها<sup>55</sup>، وهي في ذلك كقوارير قصر المنصور بن أبي عامر المسمّى: الزاهرة، التي تفرقت بعد هدمه، حتى نُقل بعضها إلى العراق! وانتهاب القوارير المنصورية، وتفرقها على البلاد المغربية، يؤكّد المعنى الطالوتي المذكور آنفاً؛ وتأويل ذلك أن المولى إسماعيل لما استقرّ بالفالونجة البديعية بمكناسة، اقتطع منها لنفسه قطعة الأسد، وأنهب، على عادة الملوك، بقيتها لمن معه من رجال دولته، ثم بعث منها أيضاً، كما تُبعث الرسائل المبشّرة بالفتوح، إلى سائر الحواضر، ليُرَفَّ إلى الرعية خبر اتصاله بنخيرة سلفه الشهير؛ فهذه الذخيرة هي علامة كونه السلطان المجدد لهم أمر الدولة، الذي أتى على حين فترة<sup>56</sup> من الملك؛ فحصلها بين أيديهم كحصول التابوت، الذي هو آية ملك طالوت، بين أيدي بني إسرائيل<sup>57</sup>.

<sup>50</sup> - الاستقصا، مصدر مذكور، الجزء السابع، ص: 56.

<sup>51</sup> - اللُحمة والسدى: اشتباكهما هو حقيقة النسج، ويضربان للشينين اللذين هما ثاني اثنين.

<sup>52</sup> - طالوت: ملك بني إسرائيل الذي ولاه الله عليهم؛ ومن آثاره ظفره بجالوت.

<sup>53</sup> - الاستقصا، مصدر مذكور، الجزء السابع، ص: 56.

<sup>54</sup> - الاستقصا، مصدر مذكور، الجزء الرابع، ص: 123.

<sup>55</sup> - نفسه، الجزء الخامس، ص: 143.

<sup>56</sup> - مقيس على فترة النبوة، وهي ما بين كل نبين. لسان العرب/ مادة: (فتر).

<sup>57</sup> - أثل الآية 248 من سورة البقرة.